

# العربية قبل سيفويه وبعده

للأستاذ ابراهيم العريض

ما وقع معه اصحاب المدارس النحوية في  
تناقض مع أنفسهم ، ومع معه القول :

قدر بهؤلاء . أضعف من حجة نحوى !

ان غرضي من طرح الموضوع على هذا الشكل  
هو ان الفت نظركم الى ضرورة اعادة النظر  
من جديد في هيكل وبناء هذه اللغة الكريمة  
شكلًا وموضوعاً ، على غرار ماتم من بعد سوانامن  
تقض في مثل هذه الدراسات حول لغاتهم منذ  
استهل هذا القرن ، وهادئ اشرف الان على  
نهايته — لأن نظل نجتر كالبيغاء مطالع القاتلوب  
منقبل مئات السنين دون وضعه على المحك .  
فاللغة عند العلماء المعاصرین هؤلاء ، بخلاف ما ي يريد  
لها نحاتنا القدماء ، دائبة في التطور غير  
جديدة ، وما ذلك الا ان المؤول في هذه الدراسات  
اللغوية الحديثة التي يتبنونها هو على اللغة  
الحية التي يتحاور بها الناس ثقائياً  
في شئ امورهم ، لا تلك التي تستبطئها الكتب  
محظة كالمومياء . مما يستخلص للغة من قواعد  
لا يجوز بحال ان تكون كبولاً بينهما التنس  
والحياة ، كما ظل الحال عندي الى امس  
القريب ، بالنسبة الى الفصحى ، ولا ان تكون  
تاصرة عن احوالها الدارجة .

والآن فلتقبط في الموضوع

اذا عدنا بالذاكرة الى الوراء ابن القتوحات  
الاسلامية الاولى الذين كثيراً من الشعب  
والايم تنفسوا تحت لواء الاسلام وتنسمى  
جاهاة لتعلم احكام هذا الدين الجديد وتلواه  
آيات محكم كتابه العزيز وهو القرآن الكريم ،  
لذا كان لابد لهم من تعلم اللغة العربية .

اسمحوا لي ان اقر — في ستمل كلمتى  
هذه — بكل تواعداً ، ما هو مندى لى حكم  
البداوة بالنسبة الى اللغة العربية ، قبل  
ان اتبسط في الموضوع شرحاً وتطليقاً :

اولاً — ان اللغة العربية التي ظلت تدارسها  
الشعوب الاسلامية — قراءة وكتابية — تتقها  
في الدين وتنكتبها في الادب ، منذ القرن الثاني  
لتهجرة ، انا هي لغة حضارية مشفبة مهذبة  
اخذت بها هذه الشعوب الداخلية في الاسلام  
«من غير العرب طبعاً» من طريق الكتابة  
والدرس ، وهي تختلف في معاشرتها النسبية  
وملابستها الاجتماعية ودلائلها القومية من لغة  
البادية التي كان العرب في اوطائهم — بمختلف  
لهجاتهم — يتحاورون بها على سليمتهم ، ولا زالوا  
ينفعون ذلك تلقائياً الى اليوم في اتحاد عالمنا  
العربي . وهي التي حاول النحاة — من غير  
طلال — تلمس شواهدھا في الشعر الجاهلي ،  
واختلفوا في امرها في شعر الفرزدق في مدر  
الاسلام ، ثم تکروا لها كلها نیسا راوأ من  
آثارها في شعر المتنبي في القرن الرابع  
المجري . فأساؤوا بذلك — الى اللغة والى  
أنفسهم . لو لا العلامة ابن جننى الذي  
تدارك الموضوع ، وكان « عالماً » بمعنى الكلمة  
موضوع لهم هذا .

ثانياً — ان توأم هذه اللغة التي يتدارسها  
الطلاب في مدارسهم كما وضمنها — ولاقل  
استبطئها — النحاة ، لتبسيير درس اللغة حسب  
منظقه ارسطيو ، هي ابعد ما تكون من الاحاطة  
بشاوهد الشعريه والأبيات القرائية التي  
تنحو نحوها يختلف منها في كثير من الاحيان

\* من الكلمات التي التبت في مهرجان سيفويه بشيراز 1974 .

ان الفرق بين ما يسميه النهاة في كلامهم (ما ينتزونه في منطق العرب) «الخطاء» وبين ظك التي تجري على لسان غير العرب هو ان الاول يمكن تاويلها من خلال ادراكتها لاسرار اللغة العربية وتنوع لهجاتها وصور ادائها ومناحي اسلوبها ، كما سوف اعرض عليكم من شواهدما بعد ، اما الثانية فلا تبرير لها من خلال واقعنا اللغوی الذي هو الاستساز والفيصل في المقارنة والحكم .

وكان لابد من جمع شواهد اللغة العربية نوضع القواعد الضابطة لها .. نقام الدوامة واللغويون بعملية الجمع ، تارة عن اساس الواقع اللغوي كما نجده في كثير من مسائل التصريف ، وطورا على اساس احتمالاته كما نجده في الافتراضات التحوية التي لا أساس لها من الواقع ، وشواهد كل ذلك موجودة في كتاب سيبويه ، ونادرًا على أساس الاستيعاب كما فعل الخليل في كتاب «العين» ، حيث استخرج الكلمات كلها من أصلها الثلاث ثم استقطع المهل منها .

واحسن الملماء بالفرق بين بعض اسلوب اللغة المنطقية وبين كونها مكتوبة ، فبعض الرموز اللغوية قاصرة من مستوى الاداء الصوتي ، ولأن الكلمة العربية في احسن احوالها ليست الا اختزالية ولا يمكن ان تعطى صورة معبرة عن منطق الناس ، كما نجده بدقة اكبر عند سوانا . ففي اللغة السنسكريتية مثلا لنطق الالف بكل املاتها اكثر من ثانية اشكال معبرة ، بينما لا يتعدى الالف عندنا شكله الواحد رغم كثرة الامالات ، كما هو واضح في بعض القراءات القرائية او لهجات القبائل . وهذا ادى بدوره الى نشأة كثير من الباحثين الصوتية ، نجد بعضها واردا في كتاب سيبويه ، مما ادى عند بعضهم الى اشكالات كثيرة .

وكان لابد من تيسير اللغة للاعاجم رغم كل هذه الاشكالات . فتعمد سيبويه الى استبطاط تواءد نحوه وصرفه على اساس الاغلبية دون ان يحددها ( وقد انكرت عليه ذلك مدرسة الكوفة ) ، وطالب بالقياس عليها ، واعتبر كل اسلوب عرب خارج عليها شلذا او لغة بحسب استطاعتها من اللغة العربية كتابا وحديثا . وكانتا كان يريد ان يضع قواعد

وهذا سبب دينى .. يضاف اليه سبب الاجتماعي يتجلى في الرغبة الشمارمة لدى تلك الشعوب والام في السعي نحو التفاهم في شؤون حياتها البيئية مع السادة الجدد .

ومن الطبيعي ان كل متعلم للغة لأبد وان يخلو في أدائها .. وهذا ما يسمى « بالحن » والحن انواع : لحن صوتي في طريقة نطق الحروف والكلمات ، ولحن اسلوب في طريقة نظام الجملة وحركات اواخر الكلمات فيها .

وهناك لحن آخر نشا على يد الذين تراوا .. القرآن ولم يكن في اول امره منقطا ولا مشكلا .. ولهذا وقع البعض في اخطاء ماحشة فقد قرئت الآية « إن الله بريء من المشركين ورسوله » بكسر اللام في رسوله .. وهذا خطأ شنيع .. وكان المواب أن تتنزع اللام على المطبع او ترفع على الابداء .. فقام ابو الاسود الدؤلي بهمة التشكيل والتشكيل ، وكان التشكيل عبارة عن نقطه بين يدي الحرف او فوق الحرف او تحته بلسون مغاير للون الحروف المكتوبة وما استحدث لها من نقاط تميزها عن بعض .

ثم جاء الخليل بن احمد وقام بهمة التشكيل بالطريقة الملاونة حاليا .

وهكذا تضى على نوع من انواع اللحن .. ويقترب الاخطاء الصوتية واللغوية والاسلوبيه . ومن الملحوظ ان هذه الاخطاء كانت معيذتها من الشعوب والام غير العربية ، لأن العرب كانوا ينطقون لغتهم بالسليقة ، كمهارة من المهارات البشرية .. ينشأ عليها ناشئ النتائج منهم ، كما هو الحال عند سائر الشعوب في تواجدها الى اليوم .

وليس معنى هذا ان العرب كانوا لا يخطئون - على مستوى الانفراد - أحيانا ، لقد كانوا مثل غيرهم يخطئون .. الا أنها اخطاء قليلة لا تفوق من شأن تأثيرها ، هذا اذا اخطأ في لغة قبيلته .. لكن لغة قبيلته لا تعد خاطئة اذا قبست اني لغة القبائل الأخرى .. وهذه ليست اخطاء ، ابدا هي لغة العرب ، متوجهة في صور ادائها وتحو اسلوبها .

وهذا يختلف اختلافا كلبا عن ظك الاخطاء التي وقعت فيها تلك الام والشعوب غير العربية .

منها ، وقتل بعدم القياس عليها لأنها تخالله القاعدة المطردة . ولو كان الت قول شاذًا فربما لاتفترض منذ زمن طويل ، مع ان الملاحظ انه مستعمل الى حد كبير في كل مكان من الوطن العربي . وهذا يعني ببساطة انه أسلوب عرب خالص فيه سر لم يهدى اليه النهاة الاولون .

نفني قولنا « أكلتني البراغيث » — كما أرى —  
يُنْصَبُ الْإِهْتَمَامُ عَلَى الْبَرَاغِيثِ الْفَاعِلَةِ ، وَيُكَوِّنُ  
تَمَامَ التَّوْلُ « مَا تَقْسَى عَلَيْهَا تَرْحَنْ ». . أَمَّا فِي تَوْلُنَا  
« أَكْلُونِي الْبَرَاغِيثُ » مَا تَنْعَى يُنْصَبُ الْإِهْتَمَامُ عَلَى  
حَدِيثِ الْأَكْلِ ذَاهِنَةً دُونَ الْبَرَاغِيثِ ، وَيُكَوِّنُ تَمَامَ  
الْتَّوْلُ هُنَا « مَا تَقْتَنَى مِنْهَا ». . مِهْذَا الْاسْلُوبُ  
الثَّانِي أَشْبَهُ مَا يَكُونُ بِالْبَنَاءِ لِلْمَجْهُولِ عَلَى فَسَادِ  
قَوْلِهِمْ فِي الْأَنْكَلِيزِيَّةِ :

وله شواهد من القرآن قوله تعالى : ناسروا  
النجوى الذين ظلموا .

ومن الحديث قول النبي صلى الله عليه وسلم :  
يتماقبون نيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهر . . . . .  
ومن الشعر قول ليلن الغفينة (زوجة البراق):

انا الذى نظر الاعمى الى ابى  
واسمعت كلامتى من به صم

١٥٣

وأني لمن قوم . . . كان نقوسنا  
بها أنت أن تسكن اللحم والمقلبا

二〇一〇

لولا منارقة الاحباب مَا وجدت  
لها الناس الى ايوهنا ميلا

تعلمية ميسرة قد تصلع لغير العرب ، كما نتعل  
نون حين ندرس تواعد لغة أجنبية فلا تنبع منها غالبا  
ـ باديء ذي بدء ـ الا كل ما هو خاضع للقياس ،  
او هكذا تتعل الامهات مع اطفالهن الصغار . ولكن  
هذا ليس بوارد عند ما يشب الطفل عن الطوق ،  
يلبلغ في لفته مثل ذويه ويحسنها احسانهم فيسا  
يتقلب فيه من ظروف حياته الخاصة . وهنا يمكن  
في نظر الكوفيين خطأ سببواه حين اراد ان يخضع  
لغة العرب المنطوية ويلوى عنقها ومنق تواعده  
ذات المهد التعليمي .

فالكسائي احد المخريجين من مدرسة الخليل — مثل سيفويه — واحد القراء السبعة المشهورين لم يعجبه هذا التعبير على اللغة . فقد نظر موجود بعض الآيات القرآنية لا تخضع لاتبعة النحاة ومنظقهم المتشدد ، وكان يتسلع بوازع ديني متدين ابن عليه ان يعتبر تلك الاساليب شاذة ولا يجوز القياس عليها ، بل اعتبرها صحيحة كصحبة الاساليب القياسية التي ارتفعها النحاة .

وقد مضى على نهجه الكوفيون من بعده حرصاً  
على سلامته اللغة.

وتحضرنى هنا المسألة الزنبروية التي اختلف  
ملبيا العمالان ، في قولهم : كنت أظن الزنبرور أشد  
لسمة من النحلة ماذا هو هي أو ماذا هو اياما .  
فقد قال مسيبويه بالقول <sup>الاول</sup> ، واجاز الكسائى  
القول الثانى ، ومفضى على خلائهما النهاية الى  
اليوم . وهذه العبارة لا تتقدم لذاتها ماتما هي مينة  
لامثلها ، وما اجاز الوجهين - كما اعتقد -  
الكسائى الا لأن العرب تتقدم بهما معا .. والى  
اليوم .. ولكن في طريقين مختلفين . وبيان ذلك مندى  
انك اذا كنت تنتقل هذه التجربة نقلًا فيبيبا عن  
سواك لها لك معدى عن القول « ماذا هو هي » ،  
اما اذا كنت تتحدث عن التجربة وقد عاينتها بنفسك  
فمندتها لا يصح الا أن تتقدل « ماذا هو اياما »  
دلالة على معيانك الحاضرة لها .

ان ما اعتبره سيبويه ومن اتبعه من مدرسة البصرة امثلة شاذة او لغات او لغفيات لا يقاس عليها يمكننا ان نستشف منها ابعاداً مفروضة وذوقية خفية على الاعاجم ومن استجم من العرب . وما اكثر هذه الشواهد الشاذة منهم :

فقد عد سبويه لفته « الكنون البراغيث »

أن تكون غاية في حد ذاتها ، ولو أنتف النحاة  
لامبieroها وسيلة لهم أسرار اللغة ، حتى في كل ما  
جاء على وجهين من باب الجواز ، كما في قول أم  
عقيل وهي ترقص طفلها :

انت تكون ماجد نبيل اذا تهب شمل بليل  
لا مجرد الافتاء بالقول « ان ( تكون ) هنا زائدة »  
هنـى تـد خـمـتـهـ بـالـصـنـتـنـيـنـ فـحـاضـرـهـ وـفـيـ مـسـتـقـلـبـهـ  
خـلـنـاـ لـأـبـيـهـ .

وان اللغة المنطقية مثقبا من الأصل في  
تهم اللغة واستبطاط تواعدها ، لانها تتخل حبة  
ابدا ، كما توصل الى تقريره العلامة المحنون في  
دراساتهم اللغوية .

واخيرا انا اؤمن باختلاف اللغات عند العرب ،  
واعتبرها كلها حجة ، كما ارى ان ما جرى على  
نسق كلام العرب فهو من كلام العرب .. تباصا او  
شندوا .. ولا يجوز أن يتحكم المنطق الذي مجاله  
الفلسفة في اللغة التي ميدانها الحياة .

والسلام عليك  
البحرين ، 1974/7/24 ،

ابراهيم المريض

وملائمهم أن يدركوا أنه كان في الاول يجب على  
السؤال « من أنت ؟ » .. لا على السؤال « من  
الذى نظر الامم الى أدبه ؟ » ، وفي الثاني كان  
يعتبر الحكم ساريا عليه كسيرانه على قومه ،  
لا ساريا عليهم وحدهم دونه ، وفي الثالث لم يكن  
خطيبتهم له الا مجرد تطبيق ما وضعوا من نظرية  
في الشمير العائد الذى لا يتقدم على اسمه ،  
وان خالفهم الواقع لا في لغة العرب وحدهم بل  
في جميع لغات الناس .

وخلالمة التسول ان بين اللغات الاتسائية  
نوعا من وشائج القرى وصلات النسب ، وعلى  
المهتم بلغة الفاد ان يسلح نفسه ببنية اجنبية  
متباينة حتى في نظرته الى لغته القومية وتهم  
« سرارها » .

وان هذه القواعد التي وضعتها سيبويه لم  
يقصد بها أن يتجنب الامر اخطأ في لغتهم وإنما  
كان الفرض منها أن يتجنب الاعجم اللحن ، وفي  
سبيل تيسيرها وقع في تناقض كثير ، لاته اراد أن  
يتلوها بالنطق .

وان تواعد اللغة — هند وضمها — لا يمكن